المبحث السادس

اعتذار أغنياء المنافقين إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

جاء خطاب الله عز وجل لعباده المؤمنين في سورة التوبة، أمراً بالجهاد في سبيله، محذراً إياهم التباطؤ في النفير، وموبخاً من تخلف منهم، منبهاً سبحانه إلى مخاطر القعود عن الجهاد في سبيله، لكن مع كل هذا ظهر المخلفين المتثاقلين، وركنوا إلى الدنيا وشهواتها، وكرهوا مشاق السفر ومتاعبه، وتقاعسوا عن النفير، فحصل لبعضٍ منهم تثاقل وآخرون تخلفوا كسلاً وعجزاً، مأثرين راحة الدنيا على نعيم الآخرة، وما ذلك إلا ليميز الله الخبيث من الطيب.

فكان لبعضهم عذر، وكثيرٌ منهم لا عذر له، إنما هو تخاذل وتسويف وصدود عن طاعة الله ورسوله، وقد ذكر المولى سبحانه حيلهم وأعذارهم ففضحهم، وبعثر مكنون نفوسهم وأسقط أعذارهم مباشرة،، فمنهم من تعلل بشدة الحر: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ٨١﴾[التوبة:81]، فأسقط المولى عذرهم وحكم بقلة فقههم؛ لأن من فر من حر ساعة فوقع في حر الأبد كان أجهل الجُهال، ومنهم من اعتذر بخوف الفتنة على نفسه، فتنة النساء لجمال نساء الروم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ٤٩﴾[التوبة:49]، فبين المولى سبحانه أن هذا الاعتذار التافه الذي لا يدل إلا على عجز حقيقي هو الفتنة في ذاته، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ٤٩﴾[التوبة:49]، أي في الفتنة الكبيرة سقطوا، فتنة الكفر والنفاق، وبعد أن بين سبحانه أن المنافقين عملوا الحيل والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الغزو قفى على ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول استأذن أولو الطول منهم في التخلف عن الغزو وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم:دعنا نكن مع الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال:﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ٨٦﴾[التوبة:86]، فقد

جاء أولوا الطول[1]منهم لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها الله لهم، وشكر النعمة التي أعطاها الله إياهم، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن، دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان، مادام فيها السلامة، وطلاب السلامة لا يحسون العار، ولذلك خص الله عز وجل اعتذارهم بالذكر لأنهم الملومون بما أعطاهم الله من السعة والقدرة المالية والبدنية، فعاقبهم الله بفضح سريرتهم ورد اعتذارهم ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٨٧﴾[التوبة:87]، فقد تعجب المولى سبحانه من اعتذارهم و رضاهم لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، ثم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير، لقلة فقههم لما فيه صلاح دينهم ودنياهم.[2]

شذرات في الاعتذار من خلال ماسبق:

1. بعد أن ذكر الله عز وجل أحوال المخلفين و نماذج من اعتذاراتهم بدأ بتقسم فرقهم وطوائفهم مبتدأ بأولي الطول منهم، يقول المولى سبحانه: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ٨٦﴾[التوبة:86]، وفي ذلك يقول ابن عاشور:"هذا عطف غرض على غرض قصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول"،[3]ومما تجدر الإشارة إليه تخصيص الله لاعتذار أولي الطول منهم والبداية باعتذارهم دون غيرهم؛ وذلك لكون الملامة في حقهم أشد، فقد جمع الله لهم بين القوة المالية و البدنية.

---

[1] أي ذوو الفضل والسَّعةِ والقُدرة على الجهاد بدناً ومالاً. إرشاد العقل السليم (4/ 90).

[2] ينظر: جامع البيان (14/ 411)، الجامع لأحكام القرآن (8/ 223)،تفسير القرآن العظيم (4/ 172)، نظم الدرر(8/ 570)، إرشاد العقل السليم (4/ 90)،تفسير المراغي (10/ 150)، زهرة التفاسير (7/ 3418)، تاريخ الرسل والملوك (3/ 102)، سيرة ابن هشام (2/ 517).

[3] التحرير والتنوير (10/ 287)

2. أشارة الآيات إلى أن الاعتذار الكاذب، والتعللات الباهتة ديدن أولي الطول من المنافقين وحالهم، يقول الرازي:" واعلم أنه تعالى بين في الآيات المتقدمة أن المنافقين احتالوا في رخصة التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الغزو، وفي هذه الآية زاد دقيقة أخرى، وهي أنه متى نزلت آية مشتملة على الأمر بالإيمان وعلى الأمر بالجهاد مع الرسول، استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التخلف عن الغزو، وقالوا لرسول الله ذرنا نكن مع القاعدين أي مع الضعفاء من الناس والساكنين في البلد".[1]

3. كان اعتذار أولوا الطول من غير ذكر عذر، إنما هو رغبة في التخلف عن المؤمنين، و إيثاراً للراحة و السلامة، يقول ابن عاشور:" وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم وأن الحقيقة هي رغبتهم في القعود ولذلك حكي قولهم بأن ابتدئ ب(ذرنا) المقتضي الرغبة في تركهم بالمدينة، وبأن يكونوا تبعا للقاعدين الذين فيهم العاجزين والضعفاء والجبناء، لما تؤذن به كلمة (مع) من الإلحاق والتبعية".[2]

4. رد المولى سبحانه على اعتذارهم متعجباً من دناءة نفوسهم، بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعا للنساء والعاجزين، وذلك ما يوحي به فعل (رضوا) حيث تلبسوا بما ما من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، ثم عاتبهم بتسميتهم بالخوالف[3]، يقول الرازي:" وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف"[4]،

---

[1] مفاتيح الغيب (16/ 118)

[2] التحرير والتنوير (10/ 289)

[3](الخوالف) جمع خالفة:أي مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال، وقد يقال للرجل: خالفة وخالف أيضا إذا كان غير نجيب، على ما تقدم يقال: فلان خالفة أهله إذا كان دونهم. تفسير القرطبي (8/ 223).

[4] مفاتيح الغيب (16/ 119).

وعاقبهم بالطبع على قلوبهم لقلة فقههم، فلو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم، وما في التخلف من ضعف ومهانة.